دراسة في أثر علماء خراسان في تطور المؤسسات العلمية في بغداد في العصر العباسي

أحمد علي أحمد
طالب ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
Jodahmed54321@gmail.com
د. طلعت ده بهلوان (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
pahlavan65@gmail.com
د. سجاد دادفر
أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
sdadfar@razi.ac.ir
د. هادي عبد النبي محمد التميمي
أستاذ، عميد كلية العلوم الإسلامية، الجامعة الإسلامية ـ النجف الأشرف، العراق
haady.altememy@iunajaf.edu.iq

A study of the influence of Khorasan scholars on the development of scientific institutions in Baghdad during the Abbasid era

Ahmed Ali Ahmed
Master's student , Department of History , Faculty of Literature and Humanities , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Talat DehPahlavan (Corresponding author)
Assistant Professor , Department of History , Faculty of Literature and Humanities , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Sajjad Dadfar
Associate Professor , Department of History , Faculty of Literature and Humanities , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Hadi Abd al-Nabi Muhammad al-Tamimi
Professor , Dean of the College of Islamic Sciences , The Islamic University -Al-Najaf Al-Ashraf , Iraq

الملخص:-

تتمحور القضية الرئيسية لهذا البحث حول كيفية تحوّل الوجود الكثيف لعلماء خراسان المهاجرين إلى بغداد العباسية من ظاهرة اجتماعية قائمة على العمل الفردي إلى مشروع جماعي هادف لبناء المؤسسات بالشكل الذي أعاد تعريف البنية العلمية للعاصمة، وعلى الرغم من الاعتراف بالدور البارز للخراسانيين في المصادر العلمية الخاصة بتلك الحقبة، إلا أن تحليل هذه العملية يُعد ضرورة لا غنى عنها لفهم كيفية تشكّل المؤسسات المعرفية في الحضارة الإسلامية وآلية تأثير المراكز الطرفية على مركز الحكم في الدولة، وللإجابة عن هذا السؤال، تم تحليل الآليات التاريخية للعمل الجماعي لهؤلاء العلماء المهاجرين، وذلك من خلال منهج تاريخي تحليلي وتحليل نقدي للمصادر المباشرة، وقد أظهرت نتائج البحث أن علماء خراسان المهاجرين لم يقتصر أثرهم على الأنشطة العلمية الفردية حسب، بل لعبوا دورًا فعالًا جماعيًا في تشكيل وتوطيد المؤسسات العلمية في بغداد، فمن خلال توليهم مناصب قضائية وإدارية هامة، وإدارتهم لمراكز تعليمية كبيرة كبيت الحكمة، لا سيما من خلال توحيد المناهج التعليمية وخلق توافق علمي بين العلماء، حوّلوا العلم من مستوى الجهود الفردية إلى بنية متماسكة ومستقرة، لذلك، لم يكن المهاجرون الخراسانيون مجرد حركة سكانية، بل كانوا حركة مؤثرة ومنظمة لعبت دورًا أساسيًا في تشكيل وتأسيس العلم في بغداد في العصر العباسي.

الكلمات المفتاحية: المؤسسات العلمية، هجرة العلماء، بغداد العباسية، خراسان، تاريخ العلوم، العمل الجماعي.

Abstract:-

The central issue of this research revolves around how the large presence of Khorasani scholars migrating to Abbasid Baghdad transformed from a social phenomenon based on individual effort into a purposeful collective project aimed at building institutions in a way that redefined the intellectual structure of the capital. While acknowledging the prominent role of the Khorasanis in the scientific sources of that era, analyzing this process is essential for understanding how intellectual institutions were formed in Islamic civilization and the mechanisms by which peripheral centers influenced the central government. To answer this question, the historical mechanisms of the collective action of these migrating scholars were analyzed through an analytical historical approach and a critical analysis of primary sources. The research findings show that the impact of the Khorasani scholars was not limited to individual scientific activities; rather, they played a collective and effective role in shaping and consolidating scientific institutions in Baghdad. By assuming important judicial and administrative positions and managing major educational centers such as the House of Wisdom, and particularly by unifying educational curricula and fostering scholarly consensus among scholars, they transformed knowledge from the level of individual efforts into a cohesive and stable structure. Therefore, the Khorasani migrants were not merely a population movement, but a movement Influential and organized, it played a fundamental role in shaping and establishing science in Baghdad during the Abbasid era.

Key words: Scientific institutions , migration of scholars , Abbasid Baghdad , Khorasan , history of science , collaborative work.

١. المقدمة:

شكّل اتخاذ بغداد عاصمةً للدولة العباسية بداية فصل جديد في تاريخ الحضارة الإسلامية، إذ أصبحت المدينة مركز جذب كبير لا مثيل له للعلماء والنخب العلمية من شتى أنحاء العالم الإسلامي (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ٩، ص ١٥٠)، وفي الوقت ذاته، لعبت خراسان الكبرى، بتاريخها العلمي والثقافي العريق ومراكزها التعليمية الكبيرة كنيسابور ومرو وبلخ، دوراً محورياً في توفير رأس المال العلمي والفكري لهذا المركز الناشئ (ابن الحوقل، ١٩٧٩: ص ٤٣٣)، وعلى الرغم من ذلك فإن استعراض الأدبيات البحثية يُظهر أن معظم الدراسات السابقة، ذات المنهج الوصفي والسير الذاتية، قد تناولت الإنجازات الفردية والأعمال العلمية للعلماء المهاجرين من خراسان، وحللت هذا الوجود الواسع في الغالب من خلال أنشطة منفصلة لنخب بارزة، وعلى الرغم من أن هذا النهج التقليدي يوفر معلومات قيّمة حول المشاركة الفردية، إلا أنه يعجز عن معالجة سؤال جوهري نصه هو: كيف أصبح هذا الحضور الكمي والمستمر سمة مؤسسية في البنية العلمية لبغداد؟ وبعبارة أخرى، تتمثل القضية الرئيسية لهذا البحث في الانتقال من تحليل العمل الفردي إلى تحليل (العمل الجماعي)، (Collective Action)، و(الدور المؤسسي)، (Institutional Role)، للمهاجرين الخراسانيين، وعلى ذلك فإن هذا البحث يسعى إلى أن يظهر أن وجود هؤلاء العلماء، فضلاً عن مجموعة من الأنشطة المتفرقة العلمية الأخرى، أدى إلى تدفق متماسك ومؤثر في تشكيل المؤسسات والمساحات العلمية للعاصمة، وأثر بشكل عميق على هويتها العلمية.

وبهدف توضيح هذه المسألة، تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة المحورية الآتية:

- كيف، ومن خلال أية آليات، ساهم المهاجرون الخراسانيون بشكل جماعي في بناء المؤسسات العلمية في بغداد العباسية؟
- في أي المؤسسات العلمية والثقافية في بغداد (كالقضاء، والأوساط التعليمية، والهياكل البيروقراطية) برز الدور الجماعي لتلك النخب؟
- ما أثر ذلك النشاط على توحيد العلوم وتصنيفها وتطويرها؟
- هل يمكننا الحديث عن (تيار فكري مؤسسي خراساني) في بغداد، أثّر، ككيان متماسك، على الهوية العلمية للعاصمة؟

إن هذه الأسئلة تسعى إلى استكشاف الآليات التي من خلالها تصبح جماعة مهاجرة عاملًا فاعلًا في البناء العلمي لمركز الحكومة وعاصمتها (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ٢، ص٨٣٠).

للإجابة عن هذه الأسئلة، تنطلق الفرضية الرئيسية للبحث من أن دور المهاجرين الخراسانيين في بغداد، إلى جانب مشاركتهم الفردية، أدى إلى عمل جماعي ومنظم من خلال إنشاء شبكات علمية، وتولي مناصب رئيسية، وتعزيز التقاليد التعليمية المشتركة، مما أسفر عن تشكيل المؤسسات العلمية في العاصمة وتوطيدها وإضفاء الحيوية عليها، ولم يكن أولئك العلماء مجرد ناقلين للمعرفة، بل كانوا من الفاعلين الرئيسيين أيضاً في عملية ترسيخها مؤسسياً، وتنص الفرضية الثانية على أن حركة بناء المؤسسات هذه، من خلال الجمع بين التراث العلمي والثقافي الفارسي والتعالىم الإسلامية، مع إعادة إنتاج المعرفة في مجالات كالفقه والحديث وعلم الكلام والأدب، والتي أسهمت في إضفاء الشرعية العلمية على بنية الحكم العباسي، وحولت بغداد إلى ساحة لتبلور ذلك التفاعل الثقافي (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ١، ص١٠٥).

ولأجل اختبار هذه الفرضيات، تستخدم الدراسة الحالية منهج بحث (تاريخي تحليلي) مع التركيز على منهج دراسة (تاريخ المؤسسات)، (Institutional History)، وفي هذا السياق، وبالاعتماد على تحليل نقدي للمصادر المكتبية الأولية، بما في ذلك كتب الترجمة والتصنيف (ابن الصلاح، ١٩٩٢؛ ابن أبي يعلي، ١٩٥٢)، والتاريخ العام والمحلي، ومؤلفات الجغرافيين، نستطيع استخلاص وتصنيف البيانات المتعلقة بالأنشطة الجماعية والمؤسسية لعلماء خراسان، كما سيتم تحليل تلك البيانات ضمن الإطار النظري لـ(هجرة النخب) و(نظرية المركز والهامش) لتوضيح كيفية تأثير حركة علمية منشؤها الهامش على البنى العلمية للمركز، وسينصب التركيز الرئيسي على العمل الجماعي، والشبكات العلمية، والصلة بين الهجرة وإضفاء الطابع المؤسسي على المعرفة، مع تجنب التركيز على السير الذاتية الفردية للعلماء حفاظًا على الطابع الابتكاري للبحث في التحليل البنيوي والمؤسسي.

٢. الأسس النظرية وخلفية البحث:

١- ٢. الأسس النظرية: من هجرة النخب إلى بناء المؤسسات العلمية:

يتطلب تحليل الدور الجماعي للمهاجرين الخراسانيين في البنية العلمية لبغداد العباسية إطاراً نظريًا يتجاوز مجرد وصف الأنشطة الفردية، ويشرح العمليات البنيوية، وفي هذا السياق، يُستخدم مفهومان أساسيان هما:

- التأسيس العلمي.
- نظرية (المركز والهامش).

إن هذان المفهومان يُستخدمان كأدوات تحليلية في هذا البحث، إذ لا يقتصر مفهوم (المؤسسة) في التاريخ الاجتماعي للعلم على الهياكل المادية كالمدارس والمكتبات، بل يتعداه ليشمل مجموعة من القواعد والمعايير والإجراءات الراسخة وشبكات التواصل التي تُنظم إنتاج المعرفة وتوزيعها وشرعيتها في المجتمع، كما يُعد (التأسيس) عمليةً يتم من خلالها تحويل الأفعال الاجتماعية المتكررة إلى أنماط مستقرة وقابلة للتنبؤ، تضمن استمرارية الحياة العلمية، وبناءً على ذلك، يُحلل دور علماء خراسان المهاجرين ليس فقط كمشاركين في المؤسسات القائمة، بل عبارة عن كونه كـ(عوامل بناء للمؤسسات) من خلال تركيز وجودهم في مجالات كالتقاضي والتدريس وتحرير النصوص، إذ قاموا بتوحيد الممارسات العلمية وتحويل الهياكل غير الرسمية إلى مؤسسات متماسكة وذات نفوذ، ويتجلى ذلك الأمر بوضوح في كتب الطبقات، إذ سُجلت بدقة سلالات الأساتذة والتلاميذ والانتماءات المدرسية على أنها الأسس المؤسسية لمختلف العلوم (ابن الصلاح، ١٩٩٢: المجلد ١، ص٢١٥).

وقد جرت عملية التأسيس تلك عبر آليات محددة ذات طبيعة جماعية، فمن خلال تشكيل شبكات علمية متماسكة قائمة على أصول جغرافية وانتماءات دينية مشتركة، تمكن المهاجرون الخراسانيون من شغل مناصب علمية وقضائية رئيسية، وأصبحوا تدريجيًا المرجعيات الأساسية في تلك المجالات، فعلى سبيل المثال، حوّلت هيمنة الفقهاء الخراسانيين على مقر القضاء في بغداد مؤسسة القضاء إلى أداة للترويج لمدرستهم الفقهية وتوطيد نفوذهم (ابن القرشي، ١٣٣٢ هـ: المجلد ٢، ص ١٠١)، كما مثّل تأليف هؤلاء العلماء للكتب المرجعية في الحديث والفقه والمعجم عملًا مؤسسيًا حدد مناهج دراسية معيارية، وأسهم في تعليم الأجيال اللاحقة ضمن نفس التراث العلمي، وهذا يعني إنشاء (سلطة رمزية) تُدار من خلالها تدفقات المعرفة وتُضبط، وكان التدوين الدقيق لمصادر وأسانيد الحديث من قِبَل علماء

مثل ابن المزّي بمثابة جهدٍ لإضفاء الطابع المؤسسي على علم الحديث وتوحيد معاييره (ابن المزّي، ١٩٩٨: المجلد ١، ص ٤٥). وقد حوّلت هذه الجهود الجماعية بغداد من مجرد موقع جغرافي إلى (فضاء مؤسسي) تُنتَج فيه المعرفة ويُعاد إنتاجها وفقًا لقواعد وهياكل محددة.

ومن أجل فهم ديناميكيات تلك الهجرة الواسعة، التي شكلت السياق الرئيسي لبناء المؤسسات، تُقدم نظرية (المركز والهامش) إطارًا مفيدًا للبحث، إذ تُحلل هذه النظرية العلاقة غير المتكافئة بين مركز قوي (سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا) ومناطقه المحيطة به، وفي هذا النموذج، كانت بغداد، بصفتها عاصمة الدولة، تمثل (المركز الجاذب) الذي استقطب النخب من جميع أنحاء العالم الإسلامي، مُوفرةً فرصًا فريدة للرعاية والاقتصاد والمكانة (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ١، ص١١٠).، ومن جانب آخر، لعبت خراسان، على الرغم من امتلاكها مراكز علمية عريقة وديناميكية، دور (الهامش المُنتج)" في هذه المعادلة، إذ أنتجت تلك المنطقة، بتاريخها الحضاري الغني، رأس مال بشري علمي باستمرار، اضطر إلى الهجرة إلى المركز سعيًا وراء نفوذ ومكانة أكبر (ابن حوقل، ١٩٧٩: ص٤٣٤)، وقد وفر هذا التدفق الأحادي الجانب للنخب، والذي تم تسجيله بالتفصيل في السجلات العامة (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١٠، ص٥٠)، الظروف الملائمة للازدهار غير المسبوق للحياة الفكرية في عاصمة الدولة.

من خلال تطبيق تلك النظرية يبدو لنا أن العلاقة بين خراسان وبغداد لم تكن مجرد تفاعل علمي بحت، بل كانت انعكاسًا لبنية السلطة في العالم الإسلامي آنذاك، فعلى الرغم من ثراء خراسان العلمي، إلا أنها افتقرت إلى السلطة السياسية والرمزية التي يتمتع بها مركز الحكم في بغداد (ابن الفقيه، ١٣٠٢هـ: ص٣١٥)، لذلك، كان انتقال أي عالم خراساني إلى بغداد يعني دخوله إلى شبكة السلطة الرئيسية واكتسابه شرعية على نطاق عالمي، وقد أشار ابن خلدون بحق إلى أن العلوم التي ازدهرت في المدن الكبرى ومراكز الحضارة (الحضارة الحضرية)، لأن تراكم الثروة والسلطة وفّر الأساس اللازم لدعم العلماء والمؤسسات العلمية (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ٢، ص٨٢٨)، في نهاية المطاف، يتشابك هذان الإطاران النظريان: إذ تشرح لنا نظرية المركز والهامش (لماذا) و(كيف) تجمعت هذه الكتلة من النخب في بغداد، ويشرح لنا مفهوم التأسيس عن (ماذا) فعلته تلك النخب بعد الاستقرار وكيف تحولت من مجموعة مهاجرة إلى المهندسين الرئيسيين للهياكل العلمية في العاصمة، تاركة وراءها إرثًا دائمًا (ابن الحنبلي، ٢٠١٢: المجلد ٣، ص٥).

٢- ٢. خلفية البحث: الانتقال من النهج المتمحور حول الشخص إلى التحليل المؤسسي:

تشير مراجعة وتحليل الدراسات السابقة حول أثر علماء خراسان في بغداد العباسية إلى هيمنة منهج تقليدي سائد، متأثر بشدة بطبيعة المصادر الأولية، لا سيما كتب الدروس والترجمات، وقد ركزت معظم تلك الدراسات، التي اعتمدت منهجًا وصفيًا وسيرًا ذاتية، على تقديم الشخصيات البارزة، وحصر أعمالهم، وشرح إنجازاتهم الفردية (ابن الصلاح، ١٩٩٢: المجلد ١، ص١٨٨)، ورغم أن هذا النوع من البحوث كان ذا قيمة كبيرة في توثيق وجود علماء خراسان في مجالات متنوعة كالفقه والحديث والقراءة والطب، وتقديم معلومات مفصلة عن حياتهم العلمية (ابن أبي عاصبة، ١٩٧٩: المجلد ١، ص٣٠٢؛ ابن الجزري، ١٩٣٢: المجلد ٢، ص١١٥)، إلا أنه يواجه قصوراً كبيراً في تحليل الظواهر على المستويين الكلي والبنيوي، إن هذا النهج الذي يركز على الفرد، على الرغم من تسجيله للوجود المتعدد للنخب، إلا أنه غير قادر على الإجابة على السؤال الأساسي حول كيفية تسبب تركيز هذا الوجود في (عمل جماعي)، Collective Action)) منظم، وما هي الآليات التي حولت ذلك العمل إلى قوة (مؤسسية) في البنية العلمية للعاصمة.

ويكشف التدقيق في الأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع أن الدراسات التي تناولت التفاعلات العلمية بين خراسان وبغداد وشبكات نقل المعرفة فيما بينهما، غالباً ما حللت هذا الوجود من منظور الأنشطة الفردية للعلماء، بدلاً من عدّه تدفقاً متماسكاً ومؤثراً، فعلى سبيل المثال، بينما تشير المصادر إلى أن فقهاء الحنفية أو الحنابلة من خراسان قد شغلوا مناصب قضائية (ابن أبي يالي، ١٩٥٢: المجلد ٢، ص٣١٠)، إلا أن قلة من الدراسات حللت كيفية تحول هذا الوجود الفردي إلى نمط مؤسسي أو إلى شغل متماسك للمناصب الرئيسية.

إن الفجوة البحثية تكمن تحديداً في هذه النقطة: وإن غياب التحليلات التي تتناول (الدور المؤسسي)، (Institutional Role)، للمهاجرين كجماعة اجتماعية، فقد أغفلت تلك الدراسات شرح الآلية التي أدت من خلالها الأعراف والتقاليد التعليمية وشبكات التواصل غير الرسمية بين نخبة خراسان إلى ممارسات راسخة في المؤسسات الرسمية في بغداد (كالمدارس والدواوين والحلقات العلمية)، وأثرت على معايير إنتاج المعرفة وشرعيتها

في المركز (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١١، ص٤٥)، لذا، فإن هذه الدراسة تسعى، بهدف تجاوز المنهج الفردي والتركيز على التحليل البنيوي، سعياً إلى سد هذه الفجوة وإعادة تعريف مكانة خراسان كعامل فاعل ومؤسس في تشكيل المؤسسات العلمية في عاصمة الدولة بغداد، بدلاً من عدّها مجرد مصدر للموارد البشرية.

٣. منصات التفاعل: قدرات الأطراف ومناطق الجذب الرئيسية:

١ - ٣. خراسان كمركز لتوليد المعرفة:

إن هذا الأمر يتطلب فهماً عميقاً لدور المهاجرين الخراسانيين في بناء المؤسسات في بغداد، بل يتطلب فهمًا دقيقًا ومنظمًا لأصولهم العلمية، إذ كان أولئك النخب حاملي رأس مال علمي تم إنتاجه وتراكمه وتنظيمه في سياق المؤسسات التعليمية الراسخة والديناميكية في خراسان، في القرون الإسلامية الأولى، إذ لم تكن خراسان مجرد منطقة جغرافية، بل كانت (مركزًا لتوليد المعرفة) يتمتع ببنية تحتية فكرية وتعليمية راسخة، كانت نتاج استقرار سياسي نسبي، وازدهار اقتصادي قائم على التجارة والزراعة، وتعايش ثقافي طويل الأمد (ابن حوقل، ١٩٧٩: ص٤٣٣)، وقد امتلكت هذه المنطقة، التي كانت مقسمة إلى أربعة أرباع رئيسية: (نيسابور - مرو- هرات - بلخ)، شبكة من المؤسسات العلمية التي غطت عملية تدريب العلماء من المراحل الابتدائية إلى المتقدمة، إذ كانت مساجد المدن الكبرى، بوصفها المراكز الأولى للتعليم العام والمتخصص، تضمّ العديد من حلقات الدراسة التي تُدرّس فيها علوم الحديث كالتفسير والتلاوة والحديث والفقه، وقد شكّلت هذه الحلقات، التي كانت تُنظّم حول أستاذٍ بارز، الأساس المؤسسي الأول لتدريب الأجيال اللاحقة من العلماء، وترتبط أسماء العديد من كبار علماء الحديث والفقهاء في خراسان بمساجد مدنهم (ابن المازي، ١٩٩٨: المجلد ٣، ص٢٥٠)، وإلى جانب المساجد، كانت المدارس (الكتاتيب) مسؤولة عن التعليم الابتدائي ومحو الأمية، ومهّدت الطريق أمام الموهوبين للالتحاق بالتعليم العالي.

مع هذه الحالة، تمثلت السمة الرئيسية المميزة لخراسان في قدراتها المؤسسية في ظهور وتوسع (المدرسة) كمؤسسة تعليمية مستقلة ومنظمة، قبل ظهورها في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، وكانت نيسابور، عاصمة خراسان خلال العصرين الطاهري والساماني، رائدة في هذا المجال، وبحلول القرن الثالث الهجري، كان لديها عشرات المدارس الكبيرة، أُنشئ العديد

منها بدعم من الحكام المحليين أو من خلال الأوقاف الشعبية (ابن الصلاح، ١٩٩٢: المجلد ١، ص١١٢)، ولم تكن هذه المدارس مجرد قاعات دراسية في المساجد، بل كانت تضم مكتبات وغرفًا للطلاب ورواتب للأساتذة والعلماء، لتصبح مؤسسات متفرغة لإنتاج ونشر المعرفة المتخصصة، لا سيما في المذهبين الشافعي والحنفي، وقد أدى هذا الهيكل المتماسك إلى خلق (تقليد تعليمي) مميز، لم يكن فيه العلماء الذين تلقوا تدريبهم مجرد ناقلين للمعرفة، بل كانوا أيضًا على دراية بآليات الإدارة والتنظيم العلمي، وكانت هذه الخبرة المؤسسية رصيدًا قيّمًا نقلوه معهم إلى بغداد، ولم يقتصر هذا النشاط العلمي على نيسابور حسب؛ إذ احتضنت مرو، كونها أحد أهم مراكز الحديث والمُلقبة بـ(ملكة العالم)، مدارس حديث شهيرة قدمت للعالم الإسلامي علماء حديث بارزين (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١٠، ص١٤٤)، فيما كانت بلخ، بحضارتها العريقة، مركزًا للعلوم الفكرية وعلم الكلام، كما أسهمت هرات إسهامًا كبيرًا في تدريب الفقهاء والكتاب (ابن الفقيه، ١٣٠٢هـ: ص٣١٧).

وقد اكتملت تلك البنية التحتية العلمية بشبكة من المؤسسات الداعمة، إذ أصبحت منازل كبار العلماء (منازل العلماء) مراكزَ لتعليم وإملاء الأحاديث، ووفرت منتديات النقاش والحوار فضاءً حيويًا لتبادل الآراء وتنمية التفكير النقدي، كما مثّلت المكتبات الخاصة والعامة كنوزًا قيّمة سهّلت وصول الباحثين إلى المصادر، وفي الواقع، كان العالم الذي ينتقل من خراسان إلى بغداد نتاجًا لنظام علمي متكامل وفعّال، إذ لم يكن فردًا، بل كان ممثلًا لمدرسة فكرية وحاملًا لتقاليد تعليمية مؤسسية، وقد منح هذا الدعم الغني المهاجرين من خراسان الثقة والقدرة على الاندماج في الهياكل القائمة عند وصولهم إلى بغداد، بل أصبحوا فاعلين رئيسيين أيضاً في عملية إنشاء وإدارة وتعزيز المؤسسات العلمية في العاصمة، وبفضل خبرتهم المؤسسية، تمكنوا من تحويل حلقات الدراسة إلى مدارس منظمة، ووضع المعايير العلمية الناشئة من خراسان في قلب الدولة العباسية، وهذا هو ما عدّه ابن خلدون ضرورياً لنضج الحضارة وازدهارها (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ٢، ص٨٣٠)، ولذلك، كانت القدرات المؤسسية لخراسان هي الشرط الأساسي والركيزة الرئيسية للدور الفعال والبنيوي لعلماءها في بغداد.

٢ - ٣. بغداد بمثابة مركز جذب:

كان تحوّل بغداد إلى مركز جذب للنخبة العلمية في العالم الإسلامي، لا سيما

المهاجرين الخراسانيين منهم، نتاج تفاعل معقد بين عوامل سياسية واقتصادية وثقافية، تشكّل في سياق استراتيجيات الدولة العباسية، فعلى الصعيد السياسي، كان تأسيس بغداد بحد ذاته عملاً مقصوداً لخلق مركز آمن بعيداً عن مراكز القوى السابقة؛ عملاً يهدف إلى النأي بالنفس عن نفوذ الأمويين في بلاد الشام وأنصار العلويين في الكوفة، وذلك لتوفير عاصمة جديدة لإقامة بنية سياسية جديدة (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ٨، ص ١١٥)، وقد وفّر هذا الاستقرار السياسي، الذي ضمنه حكام أقوياء مثل المنصور وهارون العباسيين، أساساً حيوياً للازدهار العلمي، وطمأن النخبة بأن استثماراتهم الفكرية في هذا المركز ستكون أقل عرضة للمخاطر السياسية، والأهم من ذلك، أن الدعم المباشر والمنهجي الذي قدمه البلاط العباسي للعلم والعلماء أصبح سياسة استراتيجية لإضفاء الشرعية على المؤسسة الحاكمة وتعزيز أسس الحكم لديها، وإدراكًا منهم أن القوة الناعمة للسلطة العلمية ستعزز سلطتهم السياسية، دعا الحكام العباسيين العلماء إلى العاصمة، وعينوهم في مناصب مدنية، ووفروا لهم رواتب وتسهيلات، مما خلق بيئة لا مثيل لها للنشاط العلمي (ابن أبي عاصبة، ١٩٧٩: ٢٠٣)، وقد بلغ هذا الدعم حدًا جعل الهوية الحضرية لبغداد متداخلة مع هوية النخبة المهاجرة، وكان تسمية بعض الأحياء والشوارع بأسماء شخصيات خراسانية بارزة رمزًا لهذا التداخل وإضفاء الطابع الرسمي على مكانتهم في بنية السلطة (ابن البغدادي، ١٩٣١: ٨، ٣٤١). وقد حوّل هذا النهج بغداد من مجرد مركز سياسي إلى عاصمة ثقافية ارتبطت فيها المكانة العلمية ارتباطًا وثيقًا بالمكانة الاجتماعية والسياسية.

وقد وفرت البنية التحتية الاقتصادية والجغرافية لمدينة بغداد الأساس المادي اللازم لتحقيق هذا الجذب العلمي، فموقع المدينة في قلب العراق ووقوعها على طريق الحرير، جعلها جسراً استراتيجياً بين شرق العالم الإسلامي وغربه، ولا سيما خراسان والمراكز الغربية (ابن خرادبة، ١٩٦١: ص ٩٢)، فضلاً عن مرور نهري دجلة والفرات، وخصوبة السهول المحيطة بهما، اللذان ساهما في تراكم ثروة هائلة من خلال الزراعة والتجارة، مما أتاح تمويل مشاريع علمية كبرى، ودعم العلماء، وخلق فرص عمل للخريجين (ابن حوقل، ١٩٧٩: ص ٢٤٥)، ولم يقتصر هذا الازدهار الاقتصادي على توفير نفقات المعيشة والبحث للعلماء المهاجرين فحسب، بل مكّنهم أيضاً من تكريس أنفسهم بالكامل للأنشطة الفكرية، بغض النظر عن شؤون معيشتهم؛ وهذا، بحسب ابن خلدون، شرط أساسي لتكوين

الحضارة وتطور العلوم (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ٢، ص ٨٣٠)، وفي الواقع، كانت الثروة المتراكمة في العاصمة هي القوة الدافعة للحركة العلمية وسمحت لحكام الدولة العباسية والبيروقراطيين بدعم المؤسسات العلمية والمكتبات والأوساط العلمية بسخاء، مما حوّل بغداد إلى سوق للعرض والطلب على المعرفة، إذ أصبح لرأس المال الفكري قيمة مساوية لرأس المال المادي.

وأخيراً، ساهمت العوامل الثقافية والعلمية في بلوغ هذا الجذب ذروته، وحوّلت بغداد إلى مركز علمي لا يُضاهى في عصرها، وهكذا ذاع صيت بغداد كمدينة يُشترط فيها الحضور والقبول العلمي لنيل الاعتراف في مجالس الشيوخ، حتى باتت زيارتها ضرورةً لكل طالب علم طموح (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ٤، ص ٤٣)، وأصبحت هذه المدينة ملتقىً لمختلف المذاهب الفقهية والعلمية والحركات الفكرية، ووفر جوّها المتنوع والحيوي، الذي تعزز من خلال منتديات النقاش والحوار، فرصةً استثنائيةً لنمو الفكر وتقدمه، ويُعدّ وجود كبار فقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة في هذه المدينة في آنٍ واحدٍ دليلًا على هذا التنوع الفكري (ابن أبي يعلي، ١٩٥٢: المجلد ١، ص ١٥٠؛ ابن الصلاح، ١٩٩٢: المجلد ١، ص ٢١٨)، أما بالنسبة لعلماء خراسان، الذين برزوا بدورهم من مراكز علمية عريقة كنيسابور ومرو وبلخ، فقد مثّلت لهم بغداد المرحلة الأخيرة من التطور العلمي، والساحة الأمثل لإثبات كفاءاتهم على الصعيد العالمي، وقد يسّر غياب الحدود في العالم الإسلامي هذه الرحلة العلمية (الرحلة في طلب العلم)، وحوّل بغداد إلى مركزٍ محوري للمعرفة، إذ جرى فيه اختبار المؤهلات العلمية للأفراد، وترسيخها، ثم إعادة نشرها في أرجاء العالم الإسلامي (ابن المازي، ١٩٩٨: المجلد ١٠، ص ٥٥)، وهكذا، لم ينبع جاذبية بغداد من الفرص السياسية والاقتصادية فحسب، بل من مكانة رمزية وسلطة علمية جعلتها قبلة العلماء، والمركز الأسمى للتأسيس العلمي في الحضارة الإسلامية.

٤. تحليل الدور الجماعي للمهاجرين الخراسانيين في بناء المؤسسات العلمية في بغداد (نتائج البحث)

١ - ٤. الوكالة في تأسيس الأحكام والفقه:

كان العمل الجماعي لفقهاء الخراسانين المهاجرين في مؤسسة القضاء والبنية الفقهية

لبغداد من أبرز الأمثلة على ترسيخهم العلمي، الذي تجاوز مستوى المساهمات الفردية وأدى إلى تشكيل البنية القانونية للدولة العباسية بشكل جذري، ولم يقتصر هذا العمل الجماعي على شغل عدد كبير من الخراسانيين مناصب قضائية، بل تجلى في قدرتهم على تحويل المعرفة الفقهية إلى إجراءات قانونية متماسكة تحكم النظام القضائي للعاصمة، وقد أدى التواجد المنهجي لهؤلاء الفقهاء في القضاء، لا سيما في الأحياء والمناطق المهمة في بغداد، إلى خضوع النظام القضائي، الذي كان يتسم سابقًا ببنية متفرقة، تدريجيًا لتيار فكري محدد، وانتقاله نحو التوحيد (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ١٠، ص ٦٧)، لقد حولت هذه العملية السلطة القضائية من منصب شخصي يعتمد على القاضي الفردي إلى هيئة بيروقراطية ذات إجراءات محددة، إذ كان الاعتماد على مبادئ مدارس فقهية محددة هو الأساس لإصدار الأحكام؛ وهو تطور ما كان ليتحقق لولا الوجود المركزي والمتشابك للنخب القانونية الخراسانية.

ولقد كان دور هذه الحركة في تطوير وتوطيد المذاهب الفقهية في بغداد أهم من تولي المناصب، فقد كان فقهاء خراسان بمثابة الحاملين الرئيسيين والمروجين الأساسيين للمذهبين الفقهيين الرسميين الكبيرين في الدولة (الحنفي والشافعي) وبنقلهم مراكز ثقل هذين المذهبين من خراسان وما وراء النهر إلى العاصمة، حوّلوا بغداد إلى ساحة للتنافس، وفي الوقت نفسه، إلى ساحة للتقنين النهائي لمبادئ هذين المذهبين، فعلى سبيل المثال، ساهم فقهاء الحنفية الذين برزوا من بخارى وسمرقند، من خلال هيمنتهم على مناصب القضاء، في تقريب الفقه الحنفي من الفقه الرسمي لحكام الدولة العباسية (ابن القرشي، ١٣٣٢ هـ: المجلد ٢، ص ١١٢)، من جهة أخرى، لعب فقهاء الشافعية المهاجرون من نيسابور ومرو دوراً فريداً في تطوير هذا المذهب الفقهي، حتى أن تاريخ الفقه يشير إلى (المنهج الخراساني) المتميز عن (المنهج العراقي) في الفقه الشافعي (ابن الصلاح، ١٩٩٢: المجلد ١، ص ٣٤٥)، ولقد كان هذا التمييز المنهجي بحد ذاته دليل على وجود حركة فكرية مؤسسية متماسكة استطاعت الحفاظ على استقلالها الفكري في قلب بغداد والتأثير في تطور البنية القانونية، فمن خلال تأليف الكتب الأساسية، وتدريب الطلاب المتميزين، وعقد حلقات دراسية متخصصة، لم يكونوا مجرد ناقلين للفقه، بل أصبحوا الفاعلين الرئيسيين في عملية تجميعه وترسيخه، وقد بلغ هذا التأثير العميق حداً جعل - على حد تعبير ابن خلدون، تطور

العلوم وازدهارها في أي مركز يعتمد على وجود وتأسيس مثل هؤلاء الرواد في مجال المعرفة (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ١، ص ٥٦٠)، وفي نهاية المطاف، أدى هذا العمل الجماعي إلى تطور القضاء في بغداد من هيكل تنفيذي بحت إلى مؤسسة علمية قانونية تستمد شرعيتها من المعرفة الفقهية المدونة والمنهجية؛ وهو إرث كان فقهاء خراسان هم أبرز مهندسيه (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١٢، ص ٢٠١).

٢ - ٤. القيادة في المؤسسات التعليمية والترويجية:

كان دور العلماء الخراسانين المهاجرين في قيادة المؤسسات التعليمية والإرشادية في بغداد بمثابة عمل مؤسسي تحويلي أحدث نقلة نوعية في بنية نقل المعرفة في عاصمة الدولة العباسية، فبالاستناد إلى التقاليد العلمية العريقة للمراكز التعليمية الخراسانية، تجاوزت هذه النخب مكانة المشاركين الأفراد في الأوساط العلمية، لبصبح هؤلاء المهاجرين المهندسين الرئيسيين للبنية التحتية التعليمية في بغداد، وكان سيطرتهم على حلقات التدريس في المساجد الكبرى بالمدينة، لا سيما مسجد المنصور، إذ مثّل الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، فمن خلال شغلهم كراسي متخصصة في علوم الرواية، وبخاصة الحديث والتفسير، حوّلوا هذه الأماكن من فضاءات عامة للوعظ إلى مراكز أكاديمية متخصصة (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ٩، ص ١١٥)، ولم تكن هذه الحلقات مجرد أماكن لنقل المعلومات، بل كانت ورش عمل لنقد الروايات وأساليب التفسير وصقلها وتوحيدها، من خلال ترسيخ مكانتهم في تلك المناصب، ولم يقتصر دور علماء الحديث الخراسانيين العظام على تدريس النصوص فحسب، بل شمل أيضاً نشر المنهجية الخراسانية الدقيقة في علم الرجال والجرح والتعديل، مما رسّخ سلطتهم العلمية ووجّه التيار الرئيسي لعلم الحديث في العاصمة (ابن المازي، ١٩٩٨: المجلد ١٤، ص ٢٥٠)، وقد أسفرت هذه العملية عن أن تصبح الأساليب التعليمية والمعايير العلمية التي تطورت سابقاً في نيسابور ومرو هي المعيار السائد في أهم مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت، والمتمثلة بالمسجد.

إتخذت هذه الحركة المؤسسية بُعداً جديداً مع إنشاء مكتبات الأوقاف والمكتبات الخاصة، التي استُقدم نموذجها من خراسان، وقد مثّلت هذه المكتبات، التي غالبًا ما أُنشئت بالقرب من منازل العلماء أو المساجد، مراكز دعم ومصادر بحثية لجماعات الدراسة، ووفرت

للطلاب إمكانية الوصول المنهجي إلى النصوص الأصلية، وقد أرست هذه الخطوة الأساس لتكوين المدارس النظامية في فترات لاحقة (ابن الحنبلي، ٢٠١٢: المجلد ٤، ص ١٨٨)، والأهم من ذلك، دور أولئك العلماء الخراسانيين في تجميع وتوحيد النصوص (*Canonization*) والكتب الدراسية، في مجال علوم القرآن، وقد أسهم كبار قراء خراسان في إثراء هذا العلم وتنوعه بنقل قراءاتهم وأساليبهم التفسيرية إلى بغداد، وقد تحولت بعض هذه الأساليب إلى روايات معتمدة (ابن الجزري، ١٩٣٢: المجلد ٢، ص ٣٠١)، أما في علم الحديث، فقد بلغ هذا العمل ذروته؛ إذ وضعوا عمليًا المنهج الدراسي من خلال تجميع كتب الحديث وكتب العلماء، التي كانت ثمرة جهودهم العلمية في بغداد (*Curriculum*) إذ وضعوا أسس تدريس الحديث للأجيال اللاحقة، وسرعان ما اعتُمدت هذه النصوص كمصادر رئيسية في الأوساط التعليمية، لتحل محل الكتيبات والملاحظات المتناثرة هنا وهناك سابقًا، وقد حرر هذا التوحيد المعرفة من تبعيتها للذاكرة الفردية للشيخ، وحوّلها إلى نظام مدوّن وقابل للنقل، مما ضمن استمراريتها وتوسعها (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١٣، ص ٣٣٠) وفي الواقع، فمن خلال ربط العناصر الثلاثة الأساسية المتمثلة في الآتي:

- التدريس المرجعي
- إنشاء المصادر المكتوبة
- تجميع النصوص المعيارية

من خلال هذه العناصر صممت النخبة الخراسانية ونفذت منظومة تعليمية متكاملة في بغداد، فأصبحت أنموذجًا يحتذى به في مراكز أخرى من العالم الإسلامي، ومهدت، على حد تعبير ابن خلدون، الطريق لنضج الحضارة وازدهارها (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ٢، ص ٨٣٥).

٣ - ٤. المشاركة في المؤسسات المدنية والعلمية الحكومية:

مثّلت مشاركة النخبة الخراسانية المهاجرة في المؤسسات المدنية والعلمية الحكومية في بغداد نشاطًا استراتيجيًا منظمًا، تجاوز مجرد الحضور الفردي ليصبح عاملًا حاسمًا في تشكيل البنية الفكرية والإدارية للدولة العباسية، ولم تكن هذه الحركة، التي بلغت ذروتها بدعم

مباشر من حكام كالمأمون، مجرد تضافر علمي، بل مشروعًا حضاريًا هادفًا لإضفاء الشرعية على المؤسسة الحاكمة من خلال ترسيخ المعرفة (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ١٠، ص ٧٧)، وبدخولهم البنية المدنية، إضطلع العلماء الخراسانيين بدور ليس فقط كوكلاء تنفيذيين، بل أيضًا كمهندسين فكريين ومدراء كبار للمشاريع العلمية الحكومية، وأصبح بيت الحكمة في بغداد، بوصفه المركز الرئيسي لهذه الأنشطة، ساحةً لإدارة هذه النخب وتوجيهها، بفضل إتقانهم للتراث العلمي لبلاد فارس القديمة واللغتين الفهلوية والسنسكريتية، إلى جانب العربية، فأصبحوا فاعلين رئيسيين في حركة الترجمة، فأدوا أدارواً عملية في نقل العلوم الفكرية إلى العالم الإسلامي بشكل منهجي، واشتمل هذا الدور الإداري اختيار النصوص، والإشراف على المترجمين، ومراجعة الأعمال المترجمة، مما يدل على مكانتهم المتميزة في تحديد مسار التدفق العلمي للعاصمة (ابن أبي عاصبة، ١٩٧٩: المجلد ١، ص ٢٠٣)، وقد رفع هذا النشاط بغداد من مركز سياسي فضلاً عن كونها مركز محوري لإنتاج المعرفة العالمية ومعالجتها، ووفر ذلك الأمر الأسس اللازمة لازدهار العلوم في القرون اللاحقة.

وقد كان لتأثير هذه الحركة دورٌ جوهريٌ لا يُنكر في صياغة وتطوير العلوم العقلانية، إذ يُعدّ وجود شخصيات بارزة مثل محمد بن موسى الخوارزمي، الذي أسس علمًا جديدًا في بنية المعرفة الإسلامية بتأليفه كتاب (الجبر والمقابلة)، دليلًا على ذلك، إذ كان نشاط الخوارزمي العلمي في بغداد نتاجًا مباشراً لدعم الدولة والمنصة العلمية التي وفرها بيت الحكمة، مما يُظهر كيف استطاع عالم مهاجر من خراسان أن يُحدد ويُصاغ أنموذجًا علميًا جديدًا (ابن الحنبلي، ٢٠١٢: المجلد ٢، ص ٢٢٨)، وفي مجال علم الفلك والفيزياء الفلكية، ارتقى أبو معشر البلخي، باستقراره في بغداد واستغلاله للموارد المتاحة، بالمعرفة الفلكية إلى مستوى جديد، واستُخدمت مؤلفاته كمرجع رئيسي في العالم الإسلامي، بل وفي أوروبا أيضاً لقرون.

وتُظهر هذه الإنجازات أن النخبة الخراسانية لم تكن مجرد ناقلة للمعرفة، بل شاركت بفعالية في عملية إنتاج العلوم وتطويرها وتوحيدها (ابن المازي، ١٩٩٨: المجلد ٨، ص ١٥٥)، وفضلاً عن ذلك، امتدت مشاركتهم في المؤسسات المدنية لتشمل مجالاتٍ كالجغرافيا ورسم الخرائط، فقد وظّف علماءٌ مثل ابن خراداذبة، من خلال تأليفه كتاب (المسالك والمالك)، المعرفة الجغرافية في خدمة النظام الإداري والمعلوماتي لمؤسسة الحكم في الدولة العباسية، وأسس عمليًا الجغرافيا المدنية (ابن خراداذبة، ١٩٦١: ص ١٢)، وقد أسهمت هذه الصلة بين

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

العلم والحكومة، التي أدارتها النخبة الخراسانية، بشكل كبير في تعزيز الهيكل الإداري للدولة العباسية وكفاءتها، وعلى حد تعبير ابن خلدون، مهدت الطريق لتشكيل حضارة ارتبط فيها العلم والحضارة ارتباطاً وثيقاً (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ١، ص ٥٤٣).

٤ - ٤. التواصل وتدوين مجموعة من النصوص القياسية:

تُعدُّ عملية التواصل العلمي وتجميع النصوص المرجعية (Canonization) الذي أنجزته نخبة المهاجرين الخراسانيين، ذروة نشاطهم المؤسسي في بغداد وإرثهم الأبقى في الحضارة الإسلامية، وقد حوّل هذا الجهد الجماعي والمنظم للمعرفة الإسلامية من نظام يعتمد على الذاكرة الفردية والتناقل الشفهي إلى نظام مدوّن وموحد وقابل للتكرار، وباستقرارهم في بغداد، شكّل العلماء الخراسانيين شبكة فكرية قوية نقلوا من خلالها المنهجية الدقيقة والتقاليد العلمية العريقة لخراسان إلى العاصمة بغداد، وجعلوها المعيار السائد لإنتاج المعرفة وتقييمها، ومن خلال حلقات الدرس ومنتديات النقاش، لا سيما مشاريع التأليف المشتركة أو المتوازية، أنتجت هذه الشبكة تدريجيًا نصوصًا اكتسبت سلطة مطلقة بفضل دقتها المنهجية وشمولية محتواها، ولم يكن تجميع تلك الأعمال مجرد إنجاز فردي، بل كان مشروعًا مؤسسيًا لخلق الاستقرار والسلطة والاستمرارية في البنية المعرفية للعالم الإسلامي، المتمركزة في بغداد، وكان تأليف كتب مثل (المسند) و(السنن) على يد عبد الله بن سليمان السجستاني في بغداد مثالاً على هذا النشاط الهادف لجمع المصادر الأساسية التي سرعان ما لاقت قبولاً واسعاً في الأوساط العلمية ككتب دراسية (ابن البغدادي، ١٩٣١: المجلد ٩، ص ٤٦٥)، وقد حوّلت هذه العملية المعرفة إلى مؤسسة مستقلة عن الفرد، ومهّدت، على حد تعبير ابن خلدون، الطريق أمام النضج النهائي للعلوم (ابن خلدون، ١٣٧٥: المجلد ١، ص ٥٤٤).

تجلّى هذا العمل المؤسسي في مجال الحديث بأبهى صوره، إذ استقرّ كبار علماء الحديث من خراسان في بغداد، محوّلين إياها إلى مركزٍ رائدٍ لتنقيح وتدوين الأحاديث النبوية، وبتطبيقهم للمناهج النقدية الدقيقة التي طُوّرت في المراكز العلمية في خراسان، شرعوا في جمع الأحاديث ونقدها وتصنيفها في مجموعاتٍ شاملة، وكان تدوين كتاب (الصحيحين) وسائر الكتب (الستة) الأخرى، التي برز مؤلفوها جميعًا من صميم هذه الحركة العلمية

الخراسانية، شكلت نقطة تحوّلٍ في تاريخ الدراسات الإسلامية، إذ قدمت معياراً واضحًا لصحة الأحاديث، وحسمت هذه الأعمال الخلافات وأرست مرجعيةً علميةً لا تُنازع، وقد ارتقى هذا العمل بالحديث من مجرّد علمٍ للرواية إلى فرعٍ علميٍّ ذي مبادئ وقواعد مُقنّنة، وأصبحت نصوصه المعيارية ركيزةً أساسيةً للنظام الفقهي واللغوي السني، إذ قام علماء مثل أبي بكر بن أبي خيثمة، الذي ألّف كتباً تاريخية استناداً إلى الروايات في بغداد، وبتوسيع نطاق هذه المنهجية لتشمل مجالات أخرى (ابن الجوزي، ١٩٩٢: المجلد ٧، ص ٢٦٣)، وقد أسهمت هذه العملية، القائمة على شبكة واسعة من رواة ونقاد خراسانيين، في ترسيخ علم الحديث وضمان استمراريته لقرون عديدة (ابن المزي، ١٩٩٨: المجلد ١٠، ص ٥٠).

وقد تكرر هذا النمط بقوة في مجال العلوم الأدبية واللغوية، إذ قام أدباء ولغويو خراسان، الذين كانوا حاضرين في بغداد، بتأليف معاجم وكتب نحوية ومؤلفات بلاغية ساهمت في توحيد اللغة العربية وتنظيمها كلغة للعلوم والحضارة الإسلامية، وبفضل معرفتهم الواسعة باللغة والأدب، أبدعوا مؤلفاتٍ أصبحت مصادر رئيسية لفهم القرآن والحديث والشعر العربي، وقد أدى هذا النشاط، الذي غالباً ما كان يتم في ظل منافسة وتفاعل مع مدرستي البصرة والكوفة، إلى ثراء غير مسبوق في الدراسات اللغوية في بغداد، كما كان على الفقهاء الذين كتبوا في بغداد، إتقان هذه الأسس اللغوية، وقد أسهمت مؤلفاتهم في ترسيخ تلك المعايير (ابن القرشي، ١٣٣٢ هـ: المجلد ٢، ص ٤١٩).

ونتيجةً لذلك، أسهم هذا العمل الجماعي في تجميع النصوص المعيارية في إرساء بنية علمية راسخة، لم تقتصر على ترسيخ مكانة بغداد العلمية حسب، بل منحت الحضارة الإسلامية جمعاء هوية متماسكة ومُقننة، وقد حددت تلك النصوص، بوصفها دستوراً علمياً، إطار الفكر والتعليم في العالم الإسلامي لقرون (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧١: المجلد ١، ص١٠٤).

٥. الخاتمة:

إستناداً إلى تحليل معمق لنتائج البحث، يمكن أن نقول بأن وجود علماء خراسان المهاجرين إلى بغداد العباسية قد تجاوز كونه ظاهرة اجتماعية أو هجرة عادية، ليصبح مشروعًا هادفًا ومنظمًا لبناء المؤسسات العلمية والثقافية، ولم يقتصر هذا التدفق على مجرد

نقل المعرفة من مركز هامشي إلى قلب عاصمة الدولة، بل كان في جوهره عملية فعّالة لإدارة وتنظيم وتوحيد الحياة العلمية للعاصمة بأكملها، فعند دخول الخراسانيين المهاجرين إلى بغداد، لم تكن تلك النخب عناصر سلبية، بل كانت المهندسين والفاعلين الرئيسيين للهياكل العلمية، إذ صاغوا النظام القانوني للمدينة من خلال شغل مناصب رئيسية في مؤسسة القضاء، الأمر الذي تطلب معرفة مدونة ومنهجية، وبلغ هذا النشاط ذروته في إدارة مؤسسات المعرفة، مثل بيت الحكمة، الذي أدارته شخصيات بارزة مثل محمد بن موسى الخوارزمي وحبش المروزي، وقد أدت جهود مثل هولاء الأعلام إلى رفع العلوم الفكرية من مرحلة الترجمة إلى مستوى إنتاج المعرفة المنهجي.

وفي الواقع، قام هؤلاء العلماء بنقل رأس المال الفكري والمنهجي من خراسان إلى بغداد واستخدموه كرافعة لوضع المعايير وتجميع النصوص الأساسية وتدريب جيل من العلماء، مما جعل وجودهم قوة دافعة رئيسية في النضج الحضاري لبغداد، وهي حقيقة يشير إليها ابن خلدون في تحليله لتطور العلوم.

في سياق الإجابة على الأسئلة المحورية للبحث، تُظهر النتائج أن دور علماء خراسان ومكانتهم العلمية والثقافية في تشكيل وتوسيع المناخ العلمي في بغداد كان دوراً أساسيًا ومؤسسياً، فمن خلال هيمنتهم على حلقات الدراسة في المساجد وإنشائهم مكتبات شخصية، أثروا البنية التحتية التعليمية للمدينة قبل ظهور المدارس النظامية الرسمية، وقد تضافرت عوامل عدة، منها جاذبية عاصمة الدولة ومركز الحكم فيها، ودعم الحكام والوزراء من ذوي الأصول الفارسية، ورغبة العلماء أنفسهم في اكتساب مكانة علمية عالمية، مما وفر الأساس اللازم لبناء هذا الدور، وقد شملت أنشطتهم جميع مجالات المعرفة، من علوم الرواية إلى العقلانية؛ ففي الفقه، من خلال إدخال (المنهج الخراساني) في المذهب الشافعي، أسسوا تياراً فكريًا متميزاً، وفي الحديث، من خلال تجميع كتب الصحاح، حددوا المعيار الأسمى لعلم الرواية، لذا يمكننا الحديث عن حركة علمية خراسانية متماسكة ومؤثرة في بغداد، تميزت بالتركيز على المنهجية الدقيقة، وتجميع النصوص المعيارية، وإنشاء شبكات لنقل المعرفة، وقد نقلت هذه الحركة المعرفة من ذاكرة الأفراد إلى مؤسسات راسخة ونصوص مرجعية.

لقد أسهم هذا البحث، إلى جانب توضيحه للأبعاد المؤسسية للوجود الخراساني في بغداد، في إرساء أسسٍ لدراساتٍ مستقبلية:

أولًا – يُقترح إجراء دراسةٍ مقارنةٍ حول دور المهاجرين من مناطق أخرى في العالم الإسلامي، كبلاد الشام ومصر والأندلس، لبيان تأثيرهم في البنية العلمية لبغداد، وذلك لقياس الخصائص الفريدة ودرجة تأثير الحركة الخراسانية مقارنةً بالحركات الأخرى.

ثانيًا – يُعد تحليل آثار هذه الهجرة الواسعة النطاق على المراكز العلمية في خراسان نفسها مجالًا بحثيًا أساسيًا؛ إذ ينبغي دراسة ما إذا كانت هذه (الهجرة الفكرية) قد أدت على المدى البعيد إلى التراجع النسبي لمراكز علمية مثل نيسابور ومرو في فترات لاحقة.

ثالثًا – يمكن العمل لدراسةٍ تُركز على دور الأسر العلمية الخراسانية (كعائلة البرامكة في بلخ أو عائلة آل سهل في سرخس) وأثرهم في إدارة المؤسسات المدنية والعلمية في بغداد على مدى أجيالٍ متعاقبة أن تُعمّق فهمنا لاستمرارية هذا التأثير المؤسسي.

رابعاً – قد تُسهم دراسة مستقلة لاستكشاف شبكات النخب الشيعية المهاجرة من خراسان ونشاطها الفكري، ومقارنة آليات تأثيرها بنظرائها من أهل السنة، في تقديم صورة أشمل لهذه الظاهرة التاريخية، وستُكمّل هذه المسارات البحثية فهمنا للديناميكيات المعقدة لتفاعلات المركز والأطراف في تشكيل الحضارة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن أبي أصيبعة، موفق‌الدين أحمد بن القاسم (١٩٧٩)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت: دار الثقافة.

٢. ابن الجزري، شمس‌الدين محمد بن محمد (١٩٣٢)، **غاية النهاية في طبقات القراء**، القاهره: مكتبة الخانجي.

٣. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (١٩٩٢)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، (تحقيق: محمد عبدالقادر عطا و مصطفي عبدالقادر عطا)، بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. ابن حجر العسقلاني، شهاب‌الدين أحمد بن علي (١٩٧١)، **لسان الميزان**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٥. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (١٩٧٩)، **صورة الأرض**، بيروت: دار مكتبة الحياة.

٦. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (١٩٦١)، **المسالك والممالك**، ليدن: دار العلم / بريل.

٧. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (١٩٣١)، **تاريخ بغداد**، القاهره: دار الكتاب العربي. (في النص الأصلي، كان يُشار إليه أحيانًا باسم ابن البغدادي، لكن اللقب الصحيح هو الخطيب البغدادي).

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (١٣٧٥)، **مقدمه ابن خلدون**، (ترجمه: محمد پروين گنابادي)، طهران: شركة دار النشر العلمية والثقافية، الطبعة الثامنة.

٩. ابن المزي، جمال‌الدين يوسف بن الزكي (١٩٩٨)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، (تحقيق: بشار عواد معروف)، بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٠. ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (١٩٩٢)، **طبقات الفقهاء الشافعية**، (تحقيق: محيي‌الدين علي نجيب)، بيروت: دار البشائر الإسلامية.

١١. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد (١٣٠٢ هـ)، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن: مطبعة بريل.

١٢. ابن القرشي، محيي‌الدين عبد القادر بن أبي الوفاء (١٣٣٢ هـ)، **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**. حيدرآباد دكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية.

١٣. ابن العماد الحنبلي، شهاب‌الدين عبد الحي (٢٠١٢)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٤. ابن أبي يعلى، أبو الحسين محمد بن محمد (١٩٥٢)، **طبقات الحنابلة**، القاهره: مطبعة السنة المحمدية.